

وتُعنى عناية متصلة بما هو حى، واقعى انسانى: فكان أكبر اهتمام الفيلسوف المصلح هو الاتجاه نحو العمل الإنسانى الفعال فى الأنظمة التى تتناول الحياة الروحية للمجتمع الإنسانى فى ذلك الحين.

وبهذه النظرة العقلية العملية معاً، عارض الشيخ محمد عبده ما كان سائداً فى زمانه عن العلم والمعرفة، فاستطاع بذلك أن يساهم مساهمة قوية فى تحرير الفكر الإسلامى من الآلية المدرسية و"الروتين" الضيق، وقد كانا متغلغلين حينئذ فى البيئات الأزهرية تغلغلا شديداً. محمد عبده عصرى جداً، إذا راعينا الاتجاهات العامة لفكره؛ وهو شديد القرب منا، من حيث أنه يعبر عن طبيعة يسودها الشعور الأخلاقى، ومن حيث أنه يجعل لهذا الشعور السبق على الجدل المدرسى، والمباحثات الكلامية. ونحن إذا استثنينا الغزالى، لانجد عند فيلسوف آخر من فلاسفة الإسلام، ما نجده عند محمد عبده؛ فبدلاً من تلك الثقة المطلقة فى قوة العقل التى تتجلى عند ابن سينا، نجد عند الفيلسوف المصرى موقفاً إنسانياً معتدلاً؛ فهو لا يغترف من معين الجدل والمنطق إلا بقدر، لأنه كان يرى أن "روح الرياضة" وحدها لا تكفى، ولاغنى لنا عما كان "بسكال" يسميه "روح الدقة".

على أن الأستاذ الامام لم يكن من المتزمتين، لافى الفلسفة ولا فى الدين؛ فبينا كان ابن سينا يلتزم جانباً واحداً من الحقيقة، يناصره ويذود عنه، كان محمد عبده على نقيضه، قليل الثقة بالمذاهب المغلقة، يريد أن يمد بصره إلى حقيقة أوسع وأشمل. فيبدوان الامام، بنزعانه الأخلاقية على العموم، كان أقرب إلى الغزالى منه إلى ابن سينا؛ ولكن الامام، على نقيض الغزالى، لم يكن من المتشككين فى قدرة العقل؛ كان يثق فى العقل على شرط أن لا يتجاوز حدوده، إذا العقل عنده يقوم بمهمة لا يستهان بها فى علم الأخلاق، وفى علم الدين نفسه. ولكن محمد عبده، مع ذلك، لم يكن من المسرفين فى تقدير قيمة العقل، فلم يتشدد، ولم يتورط فيما تورط فيه غيره، من اثبات وتقدير.